تحديات التعليم جامعي

مقتطفات من كلمة حفل تخريج صيف عام ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

"ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يُبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضّل أولئك هم الغافلون" (الأعراف ١٧٩)

"صدق الله العظيم"

السادة رئيس وأعضاء مجلس الأمناء المحترمين
ضيوفنا الكرام
أبناءنا الخريجين

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته

بينما يدخل العالم، أو بعضه، القرن الواحد والعشرين، يحق للإنسان الفلسطيني أن يتساءل: أين نحن من هذا القرن الجديد، وأين دور المؤسسات العلمية والجامعية تحديداً منه؟ ويحق السؤال، لأن العالم، وخلافاً لما يروّج له، لا يشهد اندماجاً وتقارباً وتشابكاً في إطار ما جرت تسميته بالعولمة، وإنما يشهد باعتقادي، وكما يبدو لي، انشقاقاً وتفسخاً وتباعداً، ليس بالأساس وفقط بين هذه الدول وتلك، كما كان الحال في العقود الأولى من القرن الماضي، بل وبشكل متزايد أيضاً، ومنذر بالخطر، بين شريحتين عالميتين من المالكين وغير المالكين، أو بين الأثرياء والفقراء، المنتشرين في قارات الأرض، بغض النظر عن قومياتهم أو جنسياتهم أو أديانهم.

وقد أشار الكاتب الفرنسي المعروف إريك رولو، أثناء محاضرته القيمة التي ألقاها في رحاب جامعة القدس خلال هذا العام، حين استضافه كرسي اليونسكو لحرية الرأي في الجامعة، بأننا نشهد اليوم وضعاً أصبحت فيه ما يزيد عن تسعين بالمائة من ثروات العالم يمتلكها ما يقل عن عشرة بالمائة من سكانه، بل وأصبح بعض المئات من أثرى الأثرياء يمتلكون ويتصرفون بالغالبية العظمى من هذه الثروات، بحيث

أصبحت ثرواتهم تفوق ثروات دول بأكملها، وكل ذلك بفضل عدة عوامل منها ما يتعلق بنظريات تراكم رؤوس الأموال، ولكن من أهمها أيضاً ما يتعلق بيسر حركة الأموال في الأسواق العالمية المنفتحة على بعضها.

إن هذه الأرقام، وهذه الحقائق الاقتصادية والاجتماعية التي تعكسها، مهوّلة إلى أقصى الحدود، وهي بالتأكيد ليست أرقاماً خيالية، وإنما تؤكدها منظمات حقوق الإنسان العالمية، ففي اجتماعها الذي انبثق عنه ما أسمي بميثاق ماسترخت عام ١٩٩٧، تمت الإشارة إلى أن الهوّة بين أغنياء العالم وفقرائه قد زادت اتساعاً خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بحيث أصبح دخل الخُمس الأفقر من سكان العالم البالغ عددهم مليار وستمائة مليون نسمة في حينه، لا يتعدى ٤ر١ بالمائة من الدخل الإجمالي للعالم، بينما وصل دخل الخُمس الأغنى من سكان العالم ما يزيد عن ٨٥% من هذا الدخل الإجمالي.

سيداتي وسادتي الكرام،

سنحت لي الفرصة قبل بضعة سنوات أن ألتقي رئيس إتحاد الغرف الصناعية في إسرائيل وكان أيضاً في حينه رئيس أكبر شركة إسرائيلية للنسيج، فأشار لي في معرض حديثه، بأنه يمكنه اليوم، وخلافاً لما كان عليه الحال في السابق، وكصاحب شركة إسرائيلية المنشأ، ضخمة العمليات، أن يدير أعماله من إحدى عواصم العالم المختلفة، كهونج كونغ مثلاً، وأن تكون مصانع إنتاجه في دولة أخرى، كالهند مثلاً، وأن تكون أسواق منتوجاته في دول غير تلك، كأوروبا والولايات المتحدة، ثم أن تكون رؤوس أمواله مستثمرة في أسهم شركات عالمية في الأسواق المالية في عواصم دول مختلفة تماماً كطوكيو أو غيرها.

نحن إذن أمام شركات وأسواق مالية واستهلاكية معولمة فعلاً، ولكن أمام هوّة متزايدة ما بين إقطاعية مالية مستحدثة ومهوّلة من جهة، وأعداد متزايدة من السكان في أرجاء العالم ممَن يدخل أكثرهم في عداد المحتاجين والفقراء من جهة أخرى، ليس في قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فحسب، وإنما في بطون ما يسمى بدول العالم الأول، أي في الولايات المتحدة وأوروبا نفسها، وإن كان انتشار الجوع والفقر والحرمان في القارات الأخرى أكثر وضوحاً وإلحاحاً.

إن هذا التفسخ المتزايد والمنذر بالخطر، بين الإنسان والإنسان، إنما يطرح تحدياً هاماً للقيم الأخلاقية الاجتماعية والاقتصادية السائدة، وتساؤلاً جوهرياً بخصوص معنى حق الإنسان، ما منه وُضع وضعاً في المواثيق المختلفة، وما منه يجب استشفافه ووضعه والنضال من أجله ونحن نخطو خطواتنا الأولى في هذا العالم الجديد.

أيها الحفل الكريم،

فإن كنا نتكلم عن هذه الإقطاعية المالية المحدثة، فحرّي بنا أن نذكر أن رؤوس الأموال تلك إنما تقتات أساساً من المواد الاستهلاكية على اختلاف أنواعها، من تقنيات الأقمار الصناعية إلى تقنيات الأجهزة المستعملة في شرايين القلب لمنع تصلبها، إلى تقنيات الهندسة الجينية باختلاف استعمالاتها، مروراً بصناعات الأغذية والأسلحة وغيرها، ممَن يقتنيها الأفراد والمؤسسات والدول. هذا هو القوت الذي يقتات منه رأس المال، وهذه التقنيات إذن هي السور أو الحدّ الفاصل الذي يفصل بين أسياد الأرض الجدد وأنعامها، ومن الواضح أن مالك وصانع التقنيات، كما يقولون، في واد، ومستهلكها في واد آخر، وهذا هو السور أو الحدّ الذي يفصل بينهما، والذي سوف يزداد حدّة ووضوحاً في القرن الجديد.

سيداتي وسادتي الأعزاء،

إنني إذ أسوق في عُجالة أمامكم بعض ملامح العالم الجديد، فلكي أنبّه فقط إلى التحديات الجمّة التي تواجه الإنسان الفلسطيني، والمؤسسة الفلسطينية، وبخاصة منها المؤسسة التعليمية أو الجامعية، تلك التحديات التي، إن أغفلناها في تصميمنا لهذه المؤسسة، نكون كمَن ينكّب على تصنيع الأسلاك البدائية الموصلة للتيارات الكهربائية، في عهد الاعتماد المتزايد على التقنيات المتجددة التطور في موصلات الفايبرأوبتكس، فليست العبرة إذن أن نبتهج في نقل برامج ومناهج وتصاميم تربوية عفى عليها الزمن تحت مُسمّى أننا أقمنا مؤسسة أو جامعة، بل حريّ بنا أن ننظر في أعماق البنية الذهنية والمجتمعية، وفي الأنماط التربوية السائدة، فنصطفي منها ما يصلح، ونُنمي فيها ما هو ضروري إنماؤه، من أجل ضمان وجودنا في ذلك الجانب من السور أو الحدّ حيث ينبض الإبداع والابتكار والفعل، كي لا نفيق من غفلة بعد عقود، فنجد أنفسنا في مخلفات التاريخ وملحقاته الثانوية، أو في الجهنم الدُنيوي.

سيدي رئيس مجلس الأمناء الفاضل،

لقد استجبت لنا وتكرمت علينا قبل فترة وجيزة بتبرع تلقائي لإقامة معرض مميّز في رحاب كلية العلوم في جامعة القدس، للفنان والمهندس الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي، وذلك بمناسبة مرور خمسمائة عام على وفاته. ويتكون المعرض، الذي استمر ثلاثة أشهر، من مجسمات حديدية وخشبية لتصاميم ورسومات هندسية دقيقة، كان الفنان المذكور قد وضعها على أوراقه الخاصة، وقامت الوفود المختلفة من طلبة المدارس والجامعات بزيارة هذا المعرض، للإطلاع عن كثب على إبداعات مخترع، كان يعمل على ضوء الشمع، ودون برمجيات الحاسوب التصميمية المتحركة في مجال الهندسة، فاستبق الزمن، واستطاع أن يضع تصاميم لآليات أصبحت هي الأساس، التي انبثقت عنه هذه التقنيات الحديثة التي لم تكن في

متناول يديه.
ما هي العبرة التي أردنا إيصالها إلى طلابنا وزوارنا ومجتمعنا من خلال هذا المعرض المتميّز؟ بالطبع، لم يكن الموضوع يتعلق فقط بالإطلاع على إبداعات أحدهم وإبداء الإعجاب بها، بل كانت الرسالة التي أردنا إيصالها هي أن الإبداع والاختراع هو طريق التميّز، وهو طريق ممكن لمَن يُشغلُ عقلَه، بالرغم من البيئة والمعوقات، فها هو ذاك المهندس الفنان، الذي نظر في الأمور من حوله، وتفكّر في متطلبات الإنسان والمجتمع الذي يعيش به، وبدأ بوضع الحلول لهذه المتطلبات هندسياً، ليس لأن لديه فكرة مسبقة عن هذه الحلول، وليس لأنه درسها أو حفظها من هذا الكتاب أو ذاك، بل لأنه أشغل عقله، وهو الكنز الثمين الذي وهبه سبحانه وتعالى للإنسان، فتفتقت عنه التصاميم والأشكال الهندسية، أكانت لنقل المياه من الأماكن المنخفضة للأماكن المرتفعة من خلال الحركة اللولبية، أو لدمج عمل المسننات الأفقية مع العامودية لتسهيل التحريك والتغلب على الأثقال، أو لدمج عمل المسننات مع الثقوب المتحركة لإخراج الإيقاع الصوتي المبرمج، إلى غير ذلك من آليات وتصاميم، تعكس عقلية فاعلة منتجة، لإنسان لم يمتلك سوى الورقة والقلم. فعقلية المبدع هذه، هي عقلية إنتاجية، تركيبية. نعم، هو بحاجة إلى المهارة اليدوية، وإلى المعلومات، ولكنه، فضلاً عن معارفه وقدراته البحثية والتحليلية، قد أشغل ذهنه تركيبياً أو إنتاجياً. هذه هي العقلية، أو الذهنية، أو نمطية التفكير، التي تبتكر وتصنّع التقنيات، وهي ليست ذهباً أو بترولاً أو معدناً في باطن الأرض هنا ولكن ليس هناك، بل هي كنز باطن في عقل الإنسان، بحاجة إلى استخراج وتفعيل، الأمر الذي يشكّل بالتالي جوهر العملية التربوية.
فنمطية التفكير هذه هي التي تميّز المنتج أو المبدع عن المستهلك، وسرعان ما تترجم هذه التقنيات المبتكرة إلى مواد الاستهلاك، التي هي، كما قلنا قوت رؤوس الأموال، والتي أصبحت حركتها، وحجمها، يحددان معالم القرن الجديد.

أيها الحفل الكريم،

إن مسؤولية تنمية وتطوير نمطية التفكير الإبداعية ليست مقتصرة فقط على التعليم الجامعي، بل يشترك فيها أولياء الأمور، الآباء والأمهات، بل هي مسؤولية المجتمع بأكمله، إن أراد المجتمع أن ينجح في صراع البقاء. نعم، لقد استحدثت الجامعة مساقاً في العام الأخير، من المتطلبات الإجبارية لطلبة السنة الأولى، تم فيه تجميع جهود أعضاء من الهيئة التدريسية من مختلف الكليات، وذلك من أجل تنمية المقدرة الذهنية التركيبية لدى الطلبة، مهما كانت تخصصاتهم، ونستطيع أن نفتخر، في هذا المجال، كما في مجالات أخرى، بأننا في هذه الجامعة سبّاقون ورياديون في العملية التربوية المواكبة للمستجدات والتحديات، ولكن، هل نظرتم، سيداتي وسادتي الكرام، داخل أسوار حضانة للأطفال أو مدرسة للصغار، إسرائيلية كانت أم غربية، وهل شاهدتم الألعاب والمربعات والألغاز والألوان والطلاء وأدوات الرسم

والنحت وغيرها مما يتوفر داخل تلك الأسوار؟ ثم هل نظرتم إلى متاحف الأطفال العلمية، فشاهدتم النماذج التجريبية التي يتفاعل معها الأطفال والصغار في معرض استيعابهم لنظريات الضوء والصوت والحركة والأجسام والنجوم، بل وحتى الجينات والخلايا وغيرها من بدائع الكون؟

فمن هنا تنطلق العملية التربوية، وتنشئة وتنمية النمطية الذهنية الإبداعية، وتشجيع التفكر والتساؤل بثقة وجرأة، فيبدأ الطفل هكذا، باحثاً منقباً مركباً من منشأه وبيته، ثم يتدرج في التعلم والتطّور في مدرسته وجامعته، فيتخرج معيلاً لا عالةً، صانعاً مبدعاً لا متلقياً مستهلكاً، قادراً على المساهمة في رفعة شأن وطنه وشعبه، فاعلاً ومقرراً لمصيره.

وإن كنا في هذه الجامعة هكذا نسعى لتطوير المقدرة الذهنية لتنشئة جيل يتمكّن من مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين الصناعية والاقتصادية، فإننا كذلك يجب ألاّ نغفل عن ذلك الجانب الآخر والأساس، وهو تنشئة ذلك الإنسان بخلقه ومبادئه، بورعه وإيمانه، الذي يجب أن يحمل رسالة الإنسانية في القرن الجديد، قرن مواجهة جيعان العالم مع غيلانه، إذ ليس أفقر علماً أو مالاً من ذاك الذي يغفل عن حاجة أخيه الإنسان، فلا يفقه بقلبه، كما لا يُبصر بعينيه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صيف عام ٢٠٠٠

يوم تخريج الفوج التاسع عشر